طالب القره غولي... تعود به (حن وانه حن) إلى الغازية وحيداً

الغازية× ، قرية أثيرة لا تبتعد عن الغراف ، إنها متشبثة فيه ، بأشجار الصفصاف وأزهار الدفلى ، وعروق حبات السعد ، لا تبتعد عن التاريخ ، فآثار سومر ، تحيط بها ، وتلال لكش على مقربة منها ، تبدو كغيوم باهتة تطل عليها من جهة الشرق ، ونخيل (قراغول) من بستان الحاج شكبان ، تنحني على الضفة اليسرى من النهر مثل شعر فتاة معطر بالحناء، والطين خاوة.

الغراف لا يبدو حاد المزاج، يجري بهدوء، يحفل بالقوارب القادمة من الجنوب تحمل التمر المطبوخ ، والحبوب ، الإنسان يتحدى التيار، يصعد نحو الشمال بصلابة ذراعه وصبره، انه مثل للقوة المتدفقة في الأنهار على مر العصور.

د.جمال العتابي

طالب القره غولي يعود لهذا المنبت.. إلى الجذور تلك وهو مشدوداً إليها.. لم يغادرها .. حاضرة في عقله ووجدانه وقلبه ، بعد رحيل عنها لعشرات السنين . بعودته كليلاً ، وحيدا ..

يحيلني طالب لتذكر أيام طفولتي الأولى، فأشاركه الشعور بالحنين إلى تلك الضفاف المنبسطة ، أمام مدرسة البنات التي شغلت بناية قديمة لماكنة الطحين ، إنها المرة الأولى التي يتدافع فيها الآباء يتسابقون لتسجيل بناتهم في المدرسة ، يتعلمن القراءة الخلدونية على يد معلم ، وضع أهالي الغازية ثقتهم فيه ، ليرعى بناتهم اللواتي أصبحن صبايا ناضجات، يعلمهن أولى الحروف، ودرس الحساب والواجبات الأخلاقية، والأشياء والصحة والرسم والرياضة، انه المعلم، والمدير والمربي بآن واحد.. لا شك في أن ذاكرة أبناء المدينة تختزن لهذا الطراز من المربين أثرهم الايجابي في تربية الأبناء، وأنا واحد من هؤلاء الأبناء الذين يفخرون بهذا المعلم الذي كان والدي.

في الشارع المحاذي لمدرسة البنات، في بيت طيني منه، يتسلل طالب بن بريد (القرة غولي في ما بعد) وقت الأصيل نحو تلك الضفاف، مخفيا نايه، (آلته الموسيقية الوحيدة) تحت ثيابه، في وقت تخلو الشوارع المترية من المارة، إلا من كلاب تعوي، وفوانيس شاحبة معلقة على جدران متآكلة بفعل الريح والمطر، جدران أدركت قهرها منذ زمن بعيد.. يحيط بطالب ثلة من أصدقائه.. ليبدأ الأنين بعزف على الناي فيأتي الصوت مثل مطر ناعم.. ينثال مثل الزهر، غير آبه إلا لغناء صديق يطلق صوته بغناء جذل لحضيري أبو عزيز أو داخل حسن.. فيلتحم الزمان بالمكان، وتغدو الحياة في نظر أي منا أجمل وأمتع، وهو يمارس دور الساحر.

شيوخ المدينة، يراقبون طالب بحذر وإمتاع.. لكنهم يخفون إعجابهم بهذا الغريد الشاب. ويتهامسون الحديث في مقهيين وحيدين لمحمد المدهوش ومحمد الجودة. إن طالب لا عمل له سوى (التموصل) .. نسبة إلى (الماصول) وهي تسمية محلية للناي .. لكن لم يدر بخلدهم ذات مرة إن هذا (الموصل) ، كان يوقد في ذاته مسارج ألحانه، من عالم هؤلاء ، عالمه هو ، بيئته ، ومحيطه وأحلامه .. ولو كان بمقدورهم أن ينتبهوا لموهبته ... لكان لهم كلام آخر لقد أخذت الغازية منه، والناصرية في ما بعد ، مقاما حميما في تجربته إلى درجة الهوس ، لارتباط الحميمية بعالم القرية (مائها، أهلها، وداعتها، بيوتها، الوافدين لها من القرى المجاورة) .. إذ تمثل فيها الدف والنقاء والألفة والعطاء والمحبة ، وكل ما هو أصيل ورائع.

أيام الطفولة التي أتذكرها ترصد العالم بعيني الاندهاش ، والالتذاذ معا ، إنها تشكل بواكير الوعي بالذات وبالآخر من حولنا ، ترغمنا على الالتفات إليها ، إنها ليست في الرجوع إلى القرية ، إنما هي تعبير عن مخزون الذاكرة ، لا بلغة الماضي ، وإنما بلغة العصر وأدواته المتقدمة.

لم ندخل عصر الانقلابات بعد ، ولا التطاحن السياسي والصراعات . كانت الحياة في القرية بسيطة عفوية لكنها ثرية عريضة ، برموز متواضعة تمثل حقيقتنا الزمنية القاهرة التي نحيا داخل أسوارها العجيبة ، لا تفتأ حتى تحتمي في إبداعات طالب .. كنا نرى القرية فردوسا لا نظير له في الجمال .. بضعة بيوت مشيدة من الآجر الملون كنا نعدها قصورا شامخة (قصر ارزيج ، وقصر عبد الحسن عيسى) ، واسطة نقل وحيدة برحلة يومية نحو الشطرة مصنوعة من الخشب .. يحشر فيها (الاوادم) مثل الأغنام ، ويعتلي سطحها ركاب آخرون يجدون متعة في التراب الذي يحيلهم إلى كائنات خرجت توا من دائرة القبور.. رجال ملثمون كالطوارق ، قادمون من الصحراء ، وعائدون إليها.

يشهد طالب الفنان امتداد ذاته عبر هذه المشاهد اليومية.. مرة اثر أخرى .. ويتكرر مشهد السيد ظاهر، وبستان جويسم وقناطر المناعية، والنعومية، والفرهة، والطبكة، وصوت عبد الواحد الهلالي، الشجي الحزين، وهو يروي قصة واقعة الطف يوم العاشر من عاشوراء. وصوت الشيخ مرتضى الوائلي.. في مجالسه الحسينية.. ومواكب زفاف شباب أبناء القرية، و(اللوكسات) المضيئة المحمولة على الأكتاف، وصبري فرج مدير المدرسة الفنان الأسمر ورحيم الكتل، وأبناء الحاج طاهر، ومحمود جوار العكيلي.

هو الامتداد عبر هذه العروق الإنسانية. الذي ولد الضوء والتوق للمجهول.. والتوهج ..

كانت الرحلة تبدأ من هنا، حيث كل الطاقات المحبوسة ، وراء الأقفاص . الينبوع الذي نهل منه القره غولي سخاءه الفني ، مفصحا عن تجلياته وفيوضه اللحنية الجديدة . إنها الإشارة الأولى الصارمة المعلنة عن موهبة قادمة.

لم يبق طالب في حدود تلك العوالم ، بل انتقل إلى مراحل جديدة ، حين بدأ يصوغ الحياة العراقية ، ويلتقط لمحات من موروث الغناء العربي الكلاسيكي ، وغناء الجنوب الريفي ، والمقام العراقي . لم يدرس طالب ذلك في معهد موسيقي متخصص ، ولم يتعلم الموسيقى على يد معلم في مدرسة، فالغازية، ليس سوى الابتدائية فيها. التي تخرج منها، هو، وعزيز السيد جاسم، وكاظم ظاهر، ومحسن الموسوي، والأشقاء محمد، وعباس الغرابي، والاخوان حميد وياسر الهلالي، وكاتب السطور.

فانتقل إلى الناصرية تلميذا في دار المعلمين الابتدائية ، ليتخرج معلما للأولاد.. والناصرية موئل المبدعين ، عالم آخر.. مدينة كالنجمة تتلألأ في سماء الخمسينيات . مكتبات ، مسارح ، سينمات ، شعر ، قصة ، تظاهرات احتجاج ، موسيقى غناء ، أسواق .. أحزاب .

تأثر طالب بهذه الأجواء ، وهو القروي القادم من الغازية، فأخذت منه مأخذا . لكنها عمقت وعيه، وصقلت تجربته. ودربت مهارته. فاجتهد وثابر. مندمجا بهذا الوسيط. ومنسجما ومؤثرا فيه .. فانطلق نحو الآفاق الواسعة، ولا نهائيات الزمان، شابا يافعا يحمل كل مقومات الطموح والقدرة على الاكتشاف والتجاوز ..

فمنذ (ياخوخ يازردالي) بدأ العصف اللحني واقتحام التقليد، وكسر الجمود، تفجير الطاقات الصوتية في حناجر لم تعرف الغناء والموسيقى، كسر الجمود والرتابة.

هذا الالتقاط للجمال والمعنى والإبعاد ، الاكتشاف الأول بحق أين تكمن أسراره ....؟

انه السؤال الذي يدعوني إلى تتبع سبل الاجابة المقنعة عليه.

لذا سأعود الى البداية الأولى في انفلات الأغنية العراقية من نمطها التقليدي في أغنية (لا خبر) بصوت فاضل عواد. والحان المرحوم حسين السعدي، والمعاصرون لتلك الحقبة نهاية ستينيات القرن الماضي . تتذكرون جيدا ..أن إذاعة بغداد كانت تكرر بث الأغنية عشرات المرات يوميا لإيقاعها السريع والجميل، وكلماتها البسيطة، فتحولت الى أغنية شارع يراها الملايين من الناس .. وأكاد أقول وبلا مبالغة إن أغنية (لا خبر) احتلت الصدارة في تاريخ الأغنية العراقية الأكثر انتشارا وقبولا في الذائقة الغنائية للعراقيين .. كما أنها وضعت مؤديها فاضل عواد أمام مسؤولية فنية خطيرة لعمل غنائي يليها.

كيف السبيل إذن .. ومن يستطيع من الملحنين أن يمنح عواد هذا الاستمرار في التألق وعدم الهبوط ، والحفاظ على الجماهيرية التي ينبغي عدم التفريط بها بأغنية تتراجع إلى الوراء .

فكانت (اتنه، اتنه) التي صاغ ألحانها طالب القره غولي خلاصا لهذا المأزق (العوادي) جاءت امتدادا وتأصيلا للنجاح الذي حققه فاضل. لينطلق بتجربته وهو أكثر ثباتا وثقة بمنهجه الغنائي المتميز . من أين لك يا طالب هذا التدفق ... أعود لسؤالي الذي أسلفت

لا بد لي وأنا أحاول الإجابة على هذا السؤال .. أن أخوض البحث في مصادر الإبداع التي تشكل موهبة الإنسان .. وأتفحص ما تتناقله النظريات في هذا المجال .. للوصول الى إسرار هذا الإلهام والكشف عن مكوناته : إذ يقول د. قاسم حسين صالح في كتاب الإبداع وتذوق الجمال : إن مكونات الإبداع تعود الى أربعة مصادر هي: الحدس ، التفكير ، الحس ، المشاعر، وعلى أساس هذا النموذج تصنف خصائص المبدعين في أربع فئات . فأين نضع طالب القره غولي من بين هذه الفئات؟ استطيع القول وفق هذا المنظور إن طالب موجود في كل تلك التصنيفات... وأكاد اجزم بالقول إن العنصر الرابع (المشاعر) ، هو الأكثر التصاقا بتجربة طالب ونعني به التأثر الانفعالي، والتعبير التلقائي عن العواطف ، الوعي الداخلي والسعي نحو تحقيق الذات ... دون أن تقلل من تأثير العناصر الأخرى بالأهمية .. وصولا إلى مرحلة الإشراق، التي تبوأها طالب في أعماله الخالدة بدءاً : من جذاب مرورا بالناصرية ، ليل البنفسج ، كالولي ، إعزاز ... وعشرات الدرر واللآلئ اللحنية.

(الإشـراق) ، ويسمى الإلـهام او التبصر ، إذ تفيد الدراسات التي أجريت عنها ، بأنها كانت مدهشة حتى لأصحابها ، إنها كومضة برق مفاجئة (الإبداع ص ٣٤) . هكذا يخيل إلي ان القره غولي وهو يصوغ ألحانه .. إنما هو يعيش حالات التجلي والتوحد ، التي تنمو في دواخله فتفيض ، ويستعيد موروثه وتاريخه سعادة الإنسان السومري وبؤسه . حزن الصبايا والأمهات أنين موجع على مر الأزمان لا نهايات له .. إدراك للوجود بكل مكوناته ، وبحث عن موقع في العالم يستطيع أن تؤكد الفته وعذوبته في موسيقى مثل النشيج المتصل بالأعماق بوح صادق تتقهقر أمامه القيود .. التي أوثقت الإنسان عصورا طويلة بالرتابة والجمود ...

طالب لا يقودنا في أعماله الى المجهول ، فله مفرداته الفنية الخاصة، وجملته اللحنية التي يستخدمها في التعبير عن رؤياه الفنية. هي عملية تركيب وتشكيل لأرق النقاط اللامعة في النص الغنائي ، والكلمة ، وفرها له صديق عمره المرحوم الشاعر زامل سعيد فتاح. الذي لم يفعل شيئا سوى الشعر. وأجمل ما في طالب حين يشارك زامل لتلك العذوبة بصوته العابر كالشراع يتمايل تحت مساقط الضوء والضلال.. نحو ارض فسيحة وخيال مكتنز بالمعاني والرموز .. يصدح في فضاءات وجودنا..

ها هي سفينة طالب ترحل من جديد صوب الغازية، أشرعتها ترشح حزنا، بعد رحلة دائبة عن الفرح والأشواق والعذابات والأحلام، للبحث عن تلك الينابيع الأولى، الدنيوات المفعمة بالدعة والأناشيد... يعيد ترديد أغنية مظفر النواب... (حن وآنه حن ونحبس الونه ونمتحن مرخوص بس كت الدمع .. شرط الدمع يجوي الجفن) لكن حروف الأغنية تحت ظلال الغراف .. تتجمد ..

هنا يعيش عالم طالب القره غولي .

× **الغازية : النصر حاليا، ناحية في محافظة ذي قار**

حرف علّة

■ عواد ناصر

المدى محجبة.. المدى سافرة

لأسبوعين أو أكثر كانت "المدى" محجبة، أو هي "حُجبتْ" وأرادوها كذلك.

افتح موقع "المدى" فأجدها محجبة.

الحجاب على المرأة يلغي شخصيتها، فلا تعرف هل جميلة، مسنة، مراهقة، جريئة، حيية، وقحة؟

في صور فوتوغرافية لنساء محجبات، على الإنترنت، لم يتعرف الزوج الذي يصور تلكم النساء، أياً منهن زوجته، أو أمّه، أخته؟

هل هناك أكثر قسوة من هذا الإلغاء/ المحو المتعمد للشخصية؟

المثير للضحك هو أن المصور (لا بد أن يكون محرما) طلب إليهن أن يبتسمن: Chees!

فابتسمن، طبعاً، تحت الحجاب.. لكن الصورة ظهرت بلا Chees!

لا جبنة ثمة بل زيتونة سوداء بلا أبعاد ولا مشاعر.

كانت "المدى" طيلة أكثر من أسبوعين رهن الحجاب في عملية "حجب" مقصودة، ولم أعرف أن ثمة صحيفة عربية تعرضت لمثل هذا الحجاب حتى في غرف نوم ابن لادن!

مثلما لـ "المدى" أصدقاء كثيرون فلها أعداء كثيرون أيضاً.

أصدقاؤها يريدونها سافرة، ضاحكة، أسنانها بيض وشفتاها ريانتان وجبينها ناصع وشعرها أسود فاحم وعيناها كحيلتان، لأنها عراقية.

أعداؤها يريدونها محجبة، مدلهمة، بلا شفتين ولا شعر ولا عينين مثيرتين للفتنة!

تحجيب "المدى" تحجيب لنا جميعاً، حتى لو لم نكن من كتاب "المدى" أو أصدقائها، لأن الموقف من الحرية: حرية الظهور والتعبير والضحك والمشاكسة والنقد، موقف واحد: أما مع الحرية أو ضدها.. تحجيب صحيفة هو تحجيب حتى للمختلفين معها، فمن يضيق بمطبوع، بفكرة، برأي، فهو يضيق بأي فكرة أو رأي أو مطبوع سواء كان "المدى" أو غيرها.

يعني: يمكن أن تتعرض أي صحيفة أو فكرة أو مطبوعة أو نكتة للحجب والتحجيب ما دام مبدأ الحجب والتحجيب قائماً، وعلى كل الصحف والمطبوعات العراقية، وحتى العربية، أن تتضامن مع "المدى" حتى لو لم تكن تتفق معها مع رسالتها وأسلوبها ومنهجها، لأن الدور سيأتي على الباقيات!

قيل في المثل: لو حلقوا لحية غيرك فاسكب الماء على لحيتك.

التحجيب سياسة تهدف إلى جعل جميع النساء مثل حبة الزيتون، بلاغياً، التي لا تمت للتعبير البشري بصلة، حتى لو كان لتلك الحبة جمالها الأخاذ وطعمها اللذيذ مع الـ Chees، عندما تبتسم النساء بلا حجاب، لأن حبة الزيتون غير محجبة!

هل هناك أكثر بساطة وعرياً من حبة زيتون؟

لو كان بيد "الجماعة" لحجبوا حتى حبة الزيتون لأنها بسيطة وعارية ولذيذة!

و "الجماعة" لا أعرفهم، رغم أنني أعرفهم، لكنهم "التقنية الذكية" في أيد غبية.

يقول المفكر الأميركي، الممنوع حتى في أميركا (!) نعوم تشومسكي: " إذا كنت تؤمن بحرية التعبير فعليك أن تؤمن حتى بحرية التعبير التي لا تعجبك".

متى نبلغ هذه الدرجة من احترام حرية التعبير؟

أشياء كثيرة لا تعجبنا، نحن الكتّاب، في أفضل صحف العالم.. وأفضل صحف العالم لا تعجبها أشياء كثيرة فينا، نحن الكتاب.

الجدل، هنا، هو سمة حضارية يختلف فيها الجميع مع الجميع، وهذه هي، حتى لو نظرياً، ما نتمرّن عليه لنخوض مباراة الديمقراطية بروح رياضية.

ليست ثمة صحيفة في العالم هي جمهورية أفلاطون ولا يوتوبيا توماس مور ولا هايد بارك الملكة إليزابيث، فالأولى طردت الشعراء والثانية لعبت مع الملك بشروط الكنيسة والثالثة محكومة بقوانين "أن تقف على دكة أو كرسي لكي لا تحاسب على أنك تقف على أرض الملكة"!

سعدت باستعادة "المدى" لموقعها على النت، لأنني استعدت قراءة كتابات أصدقاء مبدعين لن يتيسر لي قراءتهم خارج "المدى" مثلما افترض أن كلماتي التي أنشرها في "المدى" تحمل بعضاً من رسائلي إلى أصدقاء، أو غير أصدقاء، في وطني.

هدية حسين إلى الانكليزية

المدى الثقافي

عن دار(سيراكيوس يونفيرستي بريس) الأميركية صدرت رواية (مابعد الحب) للكاتبة العراقية هدية حسين المقيمة حالياً في كندا.. الرواية ترصد معاناة العراقيين في داخل العراق وفي خارجه في العام ١٩٩١، وما تلاه بعد الانتفاضة التي عمت العراق من شماله الى جنوبه وتدفق الآلاف على أبواب المفوضية السامية لشؤون اللاجئين بحثاً عن وطن بديل..

ترجمت الرواية التونسية إكرام المصمودي التي تدرّس الأدب العربي في إحدى الجامعات الأميركية.. وعلى الغلاف الأخير كلمات حول الرواية للناقد الأميركي (روجر الان) المختص بالسرديات العربية، والذي جاء في كلمته بأن هذه الرواية لا تنسى وأنها تساهم في فهم الأحداث والدوافع التي لا يمكن بثها من خلال الأخبار والتقارير، والناقد العراقي (محسن الموسوي) الذي قال عن الرواية بأنها دمعة من الأعماق ضد الحروب التي حدثت في العراق.

يُذكر أن للكاتبة هدية حسين سبع روايات وست مجموعات قصصية وكتاباً في النقد..

هاني العامري في نادي السرد

"صلاة الغجر" في دائرة المقموع والمسكوت عنه

المدى الثقافي

إذا كان لابد من التحدث عن البدايات ،فأنا كأي قارئ شغوف ومولع بالأدب منذ بواكير حياتي ،وقد تكون بداياتي منذ أن كنت مراهقاً وأنا في المتوسطة عندما بدأت قراءة كلما تقع عليه يدي من روائع الأدب العربي والعالمي .

بهذه الكلمات بدأ حديثه هاني العامري لدى ضيافة نادي السرد في الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين .

قدّم الجلسة القاص محمد علوان جبر مرحباً بالقاص هاني العامري بعدما أثنى على روايته الجديدة "صلاة الغجر "وقال : إذا كانت القصة القصيرة " فن السرد الصعب " لأنها تعمل في المنطقة الهلامية ،أي في ذلك الخط الوهمي الذي يفصل الشعر عن النثر ،فمن المؤكد أن الرواية تعمل في أماكن أكثر سعة لما تنطوي عليه من مرونة وسعة أفق .. لأنها استطاعت أن تستوعب الفنون الأخرى مجتمعة ،وإذا طبقنا صورة للمقارنة بين القصة القصيرة والرواية ،نعتبر افتراضا أن القصة تتحدث عن مقطع عرضي لنهر وهو يسير مع حيواته ،فالرواية من المنبع إلى المصب .

الروائي هاني العامري أكمل حديثه قائلا: قد تأثرت حينذاك كثيرا بتلك العوالم الساحرة التي يخلقها الروائي والقاص لأنها تسمو بي إلى ما ينشده الإنسان من كمال وعدالة وحب ومعرفة وعلاقات إنسانية لا مثيل لها .

وتحدث العامري عن روايته الجديدة " صلاة الغجر " وهي الإصدار الثاني بعد مجموعته القصصية " بعد مقام العذراء " : هي لوحة رسمتها بالكلمات وحرصت على أن لا تنتمي لمدرسة واحدة بل تمتد وشائجها إلى كل المدارس كي تضم كل حزن العراقيين وآمالهم ، ألوانها رمادية ومتشحة بالسواد ،تتدرج أحياناً لتكون متقاربة ثم متباعدة ،تسخن أحيانا وتبرد أحياناً أخرى ،ووراء كل هذا الصخب تختفي ألوان قوس قزح وتتجلى بوضوح في خيال المتلقي ليراها في الأفق القريب أو البعيد .

وأوضح العامري ماهية " صلاة الغجر " قائلا : هي قدرنا ،هي خيباتنا ،هي السؤال الذي لا نبحث عن إجابته ،وهي في وجهها الآخر الذي يمكن أن نكتشفه ببساطة متناهية ،هي انتظارنا لمبسم حياة جديدة لشروق جديد يبعد بؤر الظلام المتربصة دوما بآمالنا وفرحنا .

" صلاة الغجر " تطرح رؤى وأفكاراً عديدة ،وهذه الأفكار تظهر وتشعّ مع مقدار مخزون القارئ للبيئة العراقية والاجتماعية فكلما توغل عميقا سيكتشف عوالم داخل مخيلته الميثولوجية والاجتماعية والتراثية ،تمتزج بمحطات سياسية وتاريخية عقائدية في أوقات وأماكن محددة أحيانا ومتماهية أحيانا أخرى ،تمحورت كلها في نسيج درامي يلهث وراء أجوبة مازالت في دائرة المقموع والمسكوت عنه .

وفي باب المداخلات تحدث الكثير من الأدباء الحضور عن الرواية بآراء متباينة كونها من الروايات التي تدخل إلى عوالم غير معروفة ومبهمة وغريبة عن الواقع والأعراف المتعارف عليها في مجتمعنا العراقي ، لذلك كانت الرواية محط أنظار الجميع مابين مؤيد ومعترض حول ثيمة الرواية .